

التعايش مع الآخر في ضوء القرآن



يتحدث القرآن الكريم عن علاقة الإنسان بالإنسان، ويثقف فيه، ويعلّمه أسس التقييم، وأساليب التعامل والتعايش والعلاقة مع الآخر..

القرآن علّم الإنسان أنّه إنسان.. تتجلى فيه معان وقِيَم إنسانية، هي قيمة حياته ووجوده، والنّاس سواسية في الإنسانية، فأصل المنشأ الإنساني واحد..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) (النساء / 1).

وكرّم الله هذا الإنسان وعظّمه وثبّت أرقى المبادئ الأخلاقية والقانونية لبيان حقّ هذا الإنسان وحماية إنسانيّته من اعتداء الآخرين عليها، ومن اعتداء نفسه على إنسانيّته.. وبعبارة أخرى توفير الحماية للإنسان من ظلم أخيه الإنسان، ومن ظلم نفسه لنفسه.

يتجلى أسمى بيان لتكريم الإنسان، واحترام شخصيّته في قوله تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَا فِي الْبَيْرِ وَالْأَيْحَرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (الإسراء / 70)

وفي تزاحم الذّوات، وصراع الأنا والمصالح، تبرز ظاهرة استعلاء البعض من بني الإنسان على أخيه الإنسان، فيشعر بالعلوّ والغرور والكبرياء الأجوف.

فتكوّن في نفسه رؤى وتصوّرات ونوازع خاطئة يرى نفسه فيها أعظم من غيره، بل قد يرى البعض من هؤلاء أنّ الوجود ملخّماً بذاته.. وتتعاظم تلك الظاهرة المرضيّة والحالة الانحرافية عند هذا الصّنف من المرضى، عندما يرى نفسه متفوّقاً على غيره بالسلطة أو المال أو الجمال أو الصّحّة

أو المكانة العلمية أو الاجتماعية، بل لا يرى أن غيره يستحق أن يُحترم أو يُكرّم، أو يُعامل كإنسان له من الحقوق والكرامة ما يُعادلُه ويُساوِيه هو.. واضعاً نفسه ضمن مصاديق وصف القرآن للذات الطاغية المتكبِّر بغير حق:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاطِغٌ * أَنْزَلْنَاهُ مِنْ رَحْمَتِنَا (العلق/ 6-7).

إنَّ هذا الطَّغيان يتجسّد سلوكاً عدوانياً ضدَّ الآخرين، يتمثّل في احتقار الآخر والإستخفاف به، والتّهوين من شأنه، وأهمّيّة ما يصدر عنه.. لذا يُعيَّر عن ذلك بالسُّخريّة والغمز واللامز والهمز والغيبة.

والقرآن الحريص على حفظ كرامة الإنسان وقيّمته الإنسانيّة، واجه تلك الطّواهر السلوكية والأخلاقية العدوانية.. واجهها بالرّفص والتّحريم.. واعتبرها من كبائر الآثام، ومساوئ الأخلاق التي جاء الوحي ليُطهِّر المجتمع منها، ويخصِّص للإنسان المسلم من الإصايب بها.. لذا نجده يعن أن ينهي عن تلك الأخلاقية المنحطّة.. يذكّر الإنسان بوحدة النّوع وأصل المنشأ، وأنَّ الإستخفاف بالآخرين والإستهزاء بهم عمل خاطئ، وتجاوز على إنسانية الإنسان..

لنقرأ النّصّ القرآنيّ، ولننصت لما يُتلى، ولنفهم ولنعي تلك الثّقافة الأخلاقية التي سعى القرآن الكريم لتربية المجتمع عليها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا مِنِّي خِرٌ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّغَابِ بِذِي الْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاتُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات/ 11-13).

تحدّث المُفسِّرون عن سبب نزول هذه الآيات، وذكروا الحوادث والطّواهر الاجتماعية التي نزلت لتُعالجها، وتُطهِّر المجتمع من آثارها.. فإنَّ آيات القرآن كان بعضه ينزل بسبب وجوده بعض الحالات السيِّئة في المجتمع ليُعالجها، ويوضِّح موقف الشريعة منها، ويضع الحلول النّاجعة لها..

ذكر الواحدي في أسباب النّزول إنَّ قوله تعالى: (لا يَسْخَرُوا مِنِّي خِرٌ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ)، نزلت في ثابت بن قيس؛ لأنّه عيَّر أحد الجالسين في مجلس الرّسول (ص) بأُمّه.. وذكر أنَّ قوله تعالى: (ولا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ)، نزلت في بعض الصّحابيّات ممّن سخرن من ملابس أُمّ سلمة.. زوج الرّسول (ص).

وفي موضع آخر يستنكر القرآن أخلاقية أولئك الذين يهمزون الناس ويلمزونهم، لغرض الحطّ من شخصيّاتهم، والنّيل منهم.. ويجعل لهم الويل والعذاب..

(وَيَلُّ لِكُلِّ هُمْزَةٍ [1] لُحْمَزَةٍ [2] * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنْ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) (الهمزة/ 1-3).

وفي مواضع أخرى يستعرض نماذج من سلوكيّة السّاخرين والمستهزئين بالناس بدافع التعالّي والغرور والعُجب وعبادة الذات..

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهِ يُرْزِقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (البقرة/ 212).

ويعرض لنا القرآن الكريم صوراً من سلوكيّة السّاخرين والمستهزئين بالناس بدافع الغرور

والإستعلاء من مساحات تاريخية شتى.. نقرأ ذلك من خطابه للنبي محمد (ص):

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (التوبة/ 79).

(وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَلْهَذَا الَّذِي يَذُكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ) (الأنبياء/ 36).

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (غافر/ 83).

ومنها ما ينقله لنا القرآن من أعماق التاريخ ومساحات القرون العميقة، فيُحدِّثنا عن هذه الظاهرة في مجتمع النبي نوح (ع) فيجسد الصورة بقوله:

(فَقَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتَّيَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْتَلُوا بِآدَائِكَ الرِّئَاسَةَ وَالْمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَطُنُّكُمْ كَمَا تَبِينُ) (هود/ 27).

ويأتي جواب النبي نوح (ع)، وردّه الحاسم على تلك الأخلاقية المتعالية المغرورة، ورفضه لما طلبوه منه أن يطرد الفقراء والمستضعفين والطبقة المسحوقة في المجتمع.. فهؤلاء حسب رؤاهم السيئة لا يستحقون أن يجتمعوا معهم في مجلس أو يجلسون معهم في صف عقيدي واحد، أو يساوي بينهم وبين أولئك في التعامل والوجود الاجتماعي، ويردّ النبي نوح (ع) على هذا الفهم والموقف الخاطئ بقوله:

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَنَا مِنْهُ إِنِّي أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَالكَافِرِينَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا مِنَ اللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) (هود/ 29-31).

وينتهي الجدل والحوار بين نوح وأولئك الطبقة المستكبرين بإعلانه عن مبادئ الدعوة الإلهية السامية بأنّه لن يطرد الذين تزدري أعينهم.. فإنّ من يفعل ذلك هو ظالم لا يستطيع أحد أن يحمله من عذاب الله.. إنّ من ينظر لما في أنفسهم من خير فيتعامل معهم من خلال ذلك.. جاء هذا البيان في النص القرآني:

(وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ) (هود/ 30).

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا مِنَ اللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) (هود/ 31).

وهكذا يتحدث القرآن عن ظاهرة التعالي على الآخرين، وظاهرة السخرية منهم والإستهزاء بهم... وهمزهم ولمزهم.. ويعتبرها من أسوأ الظواهر الأخلاقية التي يجب استئصالها من المجتمع، حماية لكرامة الإنسان وشخصيته الإنسانية.

وللغرض ذاته، حرّم القرآن الغيبة والتجسس على الآخرين؛ لكشف عيوبهم ونشرها في المجتمع؛ لإسقاط شخصياتهم، والنيل منهم..

(وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمُ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

وبعد أن نهى القرآن الكريم في سورة الحجرات عن السّخرية أن يسخر رجل من رجل أو امرأة من امرأة، وخاطب الآخرين بأنّ مَنْ تسخرون منهم عسى أن يكونوا خيراً منكم.

نهى عن التنايز بالألقاب، وهو أن يذكر شخص شخصاً آخر بلقبٍ يكرهه فيسيئ لشخصيته ومكانته وينتقص منه.. وفي هذه الآية ينهى القرآن عن اللّمز.. عن ذكر عيوب النّاس وتعييرهم للحطّ من مكانتهم.. واعتبر هذا اللّمز.. هو لمز للنفس أيضاً.. لأنّه سيُقابل بالمثل وستشيع في المجتمع هذه السلوكية السيئة..

ويستمرّ في النهي عن التجسّس.. وهو تتبّع هفوات النّاس ونشرها والتشهير بها، كما نهى عن الظنّ السيئ بالآخرين، والتعامل معهم على أساس هذا الظنّ، فإنّه إثم وسلوك مرفوض..

ولحفظ كرامة الإنسان، وحماية شخصيته، ينهى القرآن عن الغيبة، وهي ذكر الإنسان في غيبته بشيء يكرهه، وشبهها بأكل لحم الإنسان الميّت لكرهاتها، وقذارة تناولها..

والآية تُثبّت أنّ النّاس خُلِقوا من ذكرٍ وأُنثى، فهم سواء في الإنسانية، وأكرمهم عند الله اتقاهم.. إنّ ما اشتملت عليه هذه الآية من قيّم أخلاقية وسلوكية لحفظ كرامة الإنسان، لهي من أرفع القِيَم والتّعليمات التربوية لبناء مجتمع يُحترم فيه الإنسان وتُمان فيه كرامته وحقوقه..

[1] - الهُمَزَة: الذي يغتاب النّاس.

[2] - اللّمَزَة: الذي يعيب النّاس.. ويذكر عيوبهم.